المكتبات بالمغرب الأقصى في عهد الموحدين

ا.م.د. نادية عبد الرحمن معاطي

كلية الآداب – جامعة صبراتة – ليبيا

الملخص:

لا يمكن التصدي لقضايا المكتبات دون النظر في أمر الكتاب الذي يعد لبنة جوهرية في هذا الصرح فيزدهر به الفكر، لذا أولى المغاربة وفي مقدمتهم الخلفاء الموحدون عناية فائقة باقتناء الكتب فقد كانوا مضرباً للأمثال بسبب اهتمامهم بهذا الشأن بحيث بلغت الحياة الفكرية بالمغرب الأقصى في عهد الموحدين ذروة نضجها بصدور عديد الكتب والمصنفات من إنتاج أبناء هذا العصر، شملت تلك المؤلفات مختلف العلوم النقلية والعقلية، والتي ذاع صيتها في بلاد المشرق والمغرب والأندلس، وقد ترتب عن هذا الزخم الثقافي انتشار المكتبات التي زخرت بالعديد من الكتب والمخطوطات على اختلاف أنواعها ومسمياتها، وكانت المكتبات من أهم دعائم الحضارة.

Libraries in the Far Maghreb during the Almohad era

Dr. Nadia Abdel Rahman Maati

College of Arts – University of Sabratha – Libya

It is not possible to address the issues of libraries without looking into the matter of the book, which is an essential building block in this edifice, in which thought flourishes. Therefore, the Moroccans, led by the Almohad caliphs, took great care in acquiring books. Its maturity came with the issuance of many books and works produced by the people of this era. These books included various transport and mental sciences, which became famous in the countries of the East, the Maghreb and Andalusia. This cultural momentum resulted in the spread of libraries that were filled with many books and manuscripts of different types and names. The most important pillars of civilization.

المقدمة :

بلغت الحياة الفكرية بالمغرب الأقصى في عهد الموحدين ذروة نضجها بصدور عديد الكتب والمصنفات من إنتاج أبناء هذا العصر ، شملت تلك المؤلفات مختلف العلوم النقلية والعقلية ، والتي ذاع صيتها في بلاد المشرق والمغرب والأندلس ، وقد ترتب عن هذا الزخم الثقافي انتشار المكتبات التي زخرت بالعديد من الكتب والمخطوطات على اختلاف أنواعها ومسمياتها ، وكانت المكتبات من أهم دعائم الحضارة ، فهي تقوم بحفظ وصيانة كنوز المعرفة وتنظيمها وإتاحتها للجميع ، كما أنها تعطي صورة صادقة لمدى اهتمام الخلفاء الموحدون بالفكر والعلم مما يجعلها من أهم مقاييس التقدم والرقي . ومن خلال هذه الدراسة حاولت الإجابة عن عدد من التساؤلات ومنها :

. ما العوامل المساعدة على نمو وازدهار الحياة الثقافية بالمغرب الأقصى ؟

. ما طرق الحصول على الكتاب ودوره في إغناء المكتبة بالمغرب الأقصى ؟

. كيف نشأت المكتبات في المغرب الأقصى؟ وما أنواعها ، وكيف كان تنظيمها ؟ وما مميزات كل نوع منها على حدة ؟ .

. ما أهم الصناعات والمهن المترتبة عن هذا الازدهار والانتشار للكتاب ؟

. ما مصير الإرث الثقافي " الكتب " الذي تركه العلماء والفقهاء ؟ وماذا أصابها من مصائب ونكبات سواء أكانت طبيعية أم بشرية ؟

وقد تم إتباع المنهج التاريخي باعتباره من المناهج الملائمة لمثل هذه البحوث

وقد قسم البحث إلى المحاور التالية :

المبحث الأول : عوامل ازدهار الحياة الثقافية بالمغرب الأقصى

لم يجد الموحدون بلاد المغرب بلاداً قاحلة من المعارف بل وجدوها قد بلغت شأوا كبيرا في هذا الميدان فالأمير يوسف بن تاشفين المرابطي ومن بعده ابنه علي بن يوسف هما من وضعا

اللبنة الأساسية لهذا الازدهار فمجلساهما كانا يعجّان بأعيان الكتاب وفرسان البلاغة من المغرب ومن جزيرة الأندلس وإن كانت لهم بعض العلوم المحظورة . إلا أن الموحدين طوروا وجددوا هذا الإرث الثقافي . وقد تضافرت عدة عوامل أسهمت في هذا الرقي يمكن إجمالها في الآتي :

أولا : الاستقرار السياسي :

أكمل الموحدون مشروع الوحدة الترابية الذي بدأه المرابطون لبلاد المغرب والأندلس فتمكنوا من تأسيس إمبراطورية مترامية الأطراف امتدت حدودها شرقاً إلى إفريقية وهي تشتمل على معظم الشمال الإفريقي ، هذا الخضوع لحكومة مركزية موحدة حقق استقرارا سياسيا زهاء سبعين سنة وفي ظله نمت الحركة الفكرية وزادت همة القرائح العلمية على البحث في شتى فروع المعرفة ، وبذل العلماء أقصى الجهود في طلب العلم من مراكز الفكر الإسلامي في المشرق والأندلس بدءاً من زمن الخليفة عبد المؤمن بن علي (٥٢٤ . ٥٥٨هـ/ ١١٣٠. ١١٦٣م) وانتهاءً بعهد الخليفة محمد الناصر (٥٩٥ . ٦١٠هـ/ ١١٩٩ . ١٢١٣م [١].

ثانيا : العامل الاقتصادي :

ساهمت الفتوحات الموحدية واتساع أركان الدولة في تدفق الأموال على عاصمة الخلافة مما ساعد على استقرار أوضاع البلاد اقتصادياً هذا بدوره يهيئ المناخ العلمي الذي يدرس فيه الطلبة ويجعلهم يقبلون على البحث والتحصيل ، وكذلك كان له أثره في دفع الأهالي إلى وقف الأوقاف لتعليم الصبيان مما كان له أثره في نهضة العلوم [٢].

ثالثا : تشجيع ولاة الأمر للعلم والعلماء :

لم يدخر الموحدون جهدا من أجل تأسيس المدارس وتطوير الثقافة واستقطاب العلماء والشعراء والفلاسفة من أجل إقامة المناظرات داخل قصورهم ، فالخليفة عبد المؤمن بن علي كرّم العلماء ومنحهم الجوائز والاقطاعات والخطط الكبرى وأعطاهم امتيازات لم يتحصلوا عليها من قبل ، كما شجَّع كثيراً من العلوم التي لم تكن رائجة أو محظورا رواجها في العهد المرابطي مما دفع بالكثير منهم بالتوجه إليه والانضواء تحت لوائه وكذلك الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وابنه المنصور الموحدي الذي قرب العلماء أليه وجعلهم أهل خدمته وخاصته ، فأصبحت بذلك العاصمة مراكش تكتظ بهم وتزخر بإبداعاتهم الفقهية والعلمية والأدبية التي ميزت عصرهم[٣].

رابعا : الصلات الوثيقة بين المغرب والأندلس :

على الرغم من أن هذه الصلات لم تنقطع بين المغرب والأندلس منذ الفتح الإسلامي للمنطقة إلا أنها ازدادت رسوخاً وازدهارا بعد أن أصبحت الأندلس إقليما تابعا للمغرب الأقصى في عهدي المرابطين والموحدين فكانت هناك هجرات كثيرة من علماء الأندلس خلال هذه الفترة فرارا من المعارك الطاحنة التي شهدتها منطقة الأندلس ضد نصارى أسبانيا مما دفع العلماء إلى الانتقال إلى المدن المغربية لينعموا بالاستقرار والطمأنينة فضلا عن الترحيب والكرم من ولاة الأمر والشعب المغربي وكان لهذا الاحتكاك أثره على المغرب حيث تدفقت الثقافات الأندلسية المتنوعة على المغرب الأقصى ، وانتقل أبناء المغرب الأقصى من قادة ورعية لينهلوا من علوم الأندلس دون قيد على حركتهم . وكان لهذه الهجرات الثقافية أثرها في تنشيط الحركة العلمية بالبلاد [٤].

وهكذا تضافرت العوامل السابقة في تنشيط الحياة الثقافية في البلاد وساعدت على نموها وازدهارها .

المبحث الثاني : الكتب وطرق الحصول عليها

لا يمكن التصدي لقضايا المكتبات دون النظر في أمر الكتاب الذي يعد لبنة جوهرية في هذا الصرح فيزدهر به الفكر، ووجوده مرتبط بوجود المكتبات التي تحافظ عليه لتجعله في متناول الطلبة والباحثين فما هي طرق الحصول عليه ودوره في إغناء المكتبة في المغرب الأقصى أثناء هذه الفترة ؟ .

أولا اهتمام الخلفاء الموحدين باقتناء الكتب:

أولى المغاربة وفي مقدمتهم الخلفاء الموحدون عناية فائقة باقتناء الكتب فقد كانوا مضرباً للأمثال في الاهتمام بهذا الشأن فالخليفة يوسف بن عبد المؤمن كان حريصا على تجميع الكتب واقتنائها فاجتمع له من كتب الفلسفة ممَّا يقرب ما اجتمع للحكم المستنصر الأموي (٣٥٠ . ٣٦٦هـ/ ٩٥٢ . ٩٦٨م) فشبهت مكتبته بكبريات مكتبات الأندلس ، ومن شدة حرصه على جمع شتات المؤلفات التي كان يخاف ضياعها أنه كان يمارس سلطته السياسية للحصول عليها في بعض الأحيان ، فقد ذكر عنه أنه أرسل رجاله ليأتوا ببعض الكتب من مكتبة ورثها أحد الأندلسيين عن أبيه خوفا من ضياعها منه ، فأخذ رجال الخليفة الكتب وعوض صاحبها ببعض

الأعطيات [٥] . وأودعت هذه الكتب في الخزانة الملكية للحفاظ عليها من الضياع ، وهذا يدل على مدى الجهد الذي بذله يوسف بن عبد المؤمن في جمع المؤلفات التي أودعها بمكتبته .

ثانيا اقتراحهم تأليف الكتب :

لم يقف اهتمام الموحدين بهذا المجال عند حد اقتناء الكتب الموجودة بل كانوا يقترحون تأليف الكتب من جديد من علماء عرفوا بشهرتهم العلمية فأوكلت لهم مهمة التأليف في بعض المواضيع ،والقضايا التي تهمهم سواء أكانت على الصعيد السياسي أو الديني أو الاجتماعي كتعزيز مشروعية إمامة ابن تومرت ، أو تأكيد مشروعية فرضية الجهاد على المسلمين ، أو الرفع من المستوى الصحي للبيئة الاجتماعية ، والبعض الآخر يتضمن علوماً شغفوا بحبها كالفلسفة والأدب [٦] .

ومن بين المؤلفات التي ألفت على هذه الأصعدة وبهمَّة الخلفاء الذين كانوا يحثون الكتَّاب على تأليف مؤلفات تدافع عن مبادئ دولتهم وترد على المكتوبات التي تنال منهم فالخليفة عبد المؤمن بن علي دعا الكتاب الذين في خدمة البلاط إلى كتابة كتب ترد على الكاتب القرطبي أبي الحسين عبد الملك بن إياس الذي كانت كتاباته النقدية تهدف إلى النيل من شرائع الدولة الموحدية ومبادئها [٧] .

وحثَّ الخليفة عبد المؤمن كذلك أبا مروان عبد الملك بن زهر على تأليف كتاب الترياق السبعيني ، ثم اختصره عشارياً واختصره سباعياً ويعرف بترياق الأنتلة ، كما عكف على تأليف مختصر الأغذية [٨] ، وبهمة يوسف بن عبد المؤمن لخص كتاب أرسطو في مجال الفلسفة ، وكذلك لخص كتب الحكيم في جزء واحد فيما يقارب من مائة وخمسين ورقة ترجمة " بكتاب الجوامع " لخص فيه كتاب الحكيم المعروف بسمع الكيان وكتاب السماء والعالم ، ورسالة الكون والفساد ، وكتاب الآثار العلوية ، وكتاب الحس والمحسوس ، ثم لخصها بعد ذلك في كتاب مبسط ضمَّ أربعة أجزاء ، كما أن شرحه الآخر على ألفية ابن سينا كان باقتراح السيد أبي ربيع بن أبي محمد بن عبد المؤمن[٩]، وألف أبو بكر بن زهر الترياق الخمسيني للمنصور أبي يوسف يعقوب [١٠] كما أمر جماعة من العلماء المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة وهي الصحيحان والترمذي ، والموطَّإ ، وسنن أبي داود ،وسنن النسائي ، وسنن البزار ، ومسند بن

أبي شيبة ، وسنن قُطني ، وسنن البيهقي فانتشرت هذه الكتب في جميع أنحاء المغرب وحفظها الناس من العوام والخاصة [١١] .

وألف الفقيه أبو محمد بن القطان للخليفة المرتضى مجموعة من الكتب ومنها كتاب نظم الجمان ، وواضح البيان فيما سلف من أخبار الزمان ، وكتاب شفاء الغلل في أخبار الأنبياء والرسل ، وكتاب الأحكام لبيان آياته عليه السلام ، وكتاب المناجاة ، وكتاب المسموعات فيها قصائد متخيرات فيما يخص المولد الكريم وشهر رجب وشعبان ورمضان . وغير ذلك من المؤلفات[١٢] . وألف أبو عبد الله محمد بن عيسى بن محمد الأزدي (ت ٦٢٠هـ/) كتاب الإنجاد في أبواب الجهاد للأمير عبد الله بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن [١٣] . وغزارة هذه المؤلفات أغنت المكتبات الملكية بالمغرب الأقصى .

ثالثا : إهداء الدفاتر والذخائر لمكاتبهم :

كان الإهداء سنة دأب عليها بعض أهل العلم تلبية لرغبة الخلفاء الموحدين وولعهم بالكتب بغض النظر عن المنفعة المرجوة من وراء ذلك ، وهي الوصول إلى الجاه والسلطة ،مقابل اعترافهم بمشروعية سلطانه ومباركته سياسياً إلا أن المنفعة الأسمى تتمثل في كونه شكل رصيداً علمياً للمكتبات الموحدية ، خاصة وأن مضمونه لم يكن مدحاً أو إطراءً ومن بين الكتب المهداة للخلفاء إهداء أبي الحسن الأشبيلي كتابه المعراج للخليفة عبد المؤمن بن يوسف وقدم لإحدى مكتبات الخلفاء الموحدين كتابه في الحيوان ، وأهدى أبو بكر الهزوني كتابه أراجيز في القراءات والتجويد للخليفة يعقوب المنصور[١٤]، وقَدَّم ابن خروف الإشبيلي كتابه تناول فيه شرح كتاب سيبويه للخليفة محمد الناصر مكتوب بخطه في أربع مجلدات[١٥] ، كما أهدى أبو الحسن بن ذي النون كتاب أرجوزة طويلة للخليفة الرشيد[١٦] . ومن الكتب المهداة للخليفة المرتضى الموحدي من جملة موشحات انتقيت من كلام الشيخ أبي عبد الله بن الصباغ الجذامي وقد ألفها مجموعة من الأئمة في تأليف واحد [١٧] ، وحتى من خارج الحضرة المغربية كان الخلفاء الموحدون يستقبلون هدايا الكتب فالسلطان الشهير صلاح الدين الأيوبي أهدى الخليفة يعقوب مصحفين ثمينين منسوبين مع جملة من الهدايا الأخرى [١٨].

ونتيجة لغزارة المحصول العلمي سواء أكانت عن طريق اقتناء الخلفاء الموحدين الكتب أو التشجيع على التأليف أو عن طريق الإهداء ظهرت المكتبات الملكية والمكتبات الخاصة والعامة .

المبحث الثالث: المكتبات

اولاً : المكتبات الملكية / مكتبة العاصمة مراكش :

عرفت هذه الخزانة بعدة أسماء منها الخزانة العالية [١٩] وخزانة الكتب ، وردت أول إشارة لها في عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ . ٥٨٠هـ/ ١١٦٣ . ١١٨٤م) عندما تولى مهمة اقتناء الكتب ، وهي مكتبة ملكية جمع لها الخليفة المذكور المؤلفات من كل مكان ، وحرص على اقتناء الكتب ، حتى قيل إنه اجتمع له من كتب الفلسفة ما يقرب مما اجتمع للحكم المستنصر الأموي كما سبقت الإشارة إليه [٢٠] ، وأودعت هذه الكتب في الخزانة الملكية للحفاظ عليها من الضياع وهذا يدل على مدى الجهد الذي بذله الخليفة في جمع المؤلفات التي أودعها مكتبته . وعين عليها قيما من كبار العلماء .

مكتبة القصر بحومة الصالحية :

وهي المكتبة التي أسسها الخليفة يعقوب المنصور (٥٨٠ . ٥٩٥هـ/ ١١٨٤ . ١١٩٩م) بجوار قصره في مدينة مراكش الجديدة ، وقد جاء ذكرها عند العمري عند حديثه عن المدرسة حيث قال :"وفي هذه الرحبة مدرسة وهي مكان جليل به خزائن الكتب[٢١] والواضح أن خزانة الكتب هذه تابعة لهذه المدرسة الملكية وبالتالي فهي مكتبة خاصة .

خزانة الأشربة :

كثف خلفاء الدولة الموحدية جهودهم في الاهتمام بالوضع الصحي لرعيتهم فعملوا على إنشاء خزانة متخصصة ومجهزة بأشربة طبيعية وكيميائية ، من إنتاج أطباء مهرة وتولى مهمة الإشراف عليها أحد أفراد الطاقم الطبي الملحق بالقصر السلطاني ، مثل الطبيب أبو يحيى بن قاسم الاشبيلي بدءاً بعهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ . ٥٨٠هـ/ ١١٦٣ . ١١٨٤م) وانتهاء

بعهد الخليفة المستنصر (٦١٠ . ٦٢٠هـ/١٢١٣ . ١٢٢٣م) ، ولما توفى يحيى تولى ابنه الإشراف على الخزانة خَلَفاً أبيه [٢٢].

تنظيم المكتبات الملكية ومميزاتها :

١ . التنظيم :

لم يحفظ التاريخ معلومات عن التنظيم الإداري لخزانة الكتب الملكية بخصوص المعلومات المرتبطة بالفهرسة والإدارة والتسيير ، ولم نجد سوى بعض التفاصيل عن وظيفة المحافظ وتعيينه على رأس الخزانة . أما فيما يخص العناصر الأخرى المتعلقة بالتنظيم فالخزانات المغربية تسير على نهج الخزانات الأندلسية من ناحية التصنيف والفهرسة باعتبارهما قطراً واحداً ، فتكون بذلك الخزانة الملكية الموحدية مصنفة مفهرسة ، فجزء من هذه الخزانة كان مخصصاً فقط لمؤلفات مختلف الفروع العلمية التي بلغ عددها مائتي ألف مجلد ، وضمَّت رفوفاً أخرى في نفس الخزانة كانت مخصصة لعلوم بشرية أخرى [٢٣].

٢ . خطة الإشراف على المكتبات :

بلغ اهتمام الخلفاء الموحدين بالمكتبات شأواً كبيراً وزودوها بشتى أنواع الكتب بحيث وصل هذا الاهتمام إلى استخدامهم خطة للإشراف عليها من قبل أشخاص يتم تعيينهم من الخليفة مباشرة ، وكانت هذه المهمة ضرورية للإدارة وتسيير المكتبة وتنظيم الكتب ، وتصنيف المعرفة ، إذ اعتبروها من الخطط الجليلة التي لا يعين لها إلا علية أهل العلم من العلماء البارزين والموسوعين والقضاة وفي بعض الأحيان كانت تعهد إلى الوزراء ، وكان المشرف أو المحافظ يسمى صاحب المصاحف [٢٤]، وممن تولى هذه المهمة في عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن الصقر السرقسطي قاضي الدولة [٢٥]، والشخص الثاني الذي تم اختياره لمهمة محافظ الخزانة الملكية الموحدية العالم والمحدث الكبير أبو الحسن علي بن القطان (ت ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م) [٢٦]، فعندما تعرضت الخزانة الملكية لنكبة الفوضى ، وسرق جزء منها عقب الحرب الأهلية التي وقعت في النصف الأول من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي بين الأمراء الموحدين . وذلك بعد مقتل الخليفة الموحدي أبو محمد عبد الواحد (٦٢٠ . ٦٢١هـ/ ١٢٢٣ . ١٢٢٤م) أمر الخليفة العادل (٦٢١ . ٦٢٤هـ/ ١٢٢٤ .

١٢٢٦م) لحظة استقراره في مراكش وزيره علي بن جامع بالنظر في ترتيب ما تبقى من كتب الخزانة وتمييز الكامل من الكتب ، ومعرفة الناقص منها ، ولكن نتيجة لخلاف وقع بينه وبين وزيره أسندت المهمة إلى علي أبي الحسن بن القطان [٢٧] وأصبح تولي الإشراف على هذه الخزانة من المهام الرفيعة التي ينتدب لها أكابر العلماء .

وممن تولى مهمة المحافظ كذلك علي بن لب بن علي بن شلبون المكنى أبو الحسن [٢٨]، ومنذ عهد الخليفة ابن يوسف بن عبد المؤمن إلى عهد الخليفة المستنصر تولى أبو يحيى بن قاسم الأشبيلي مهمة الإشراف على خزانة الأشربة وبعد وفاته تولاها ابنه عوضاً عنه [٢٩] ، وفي عهد الخليفة عبد الله بن يعقوب الملقب بالعادل تولاها أبو محمد عبد الله العراقي [٣٠].

مميزاتها :

تميزت الخزانات الملكية بميزتين أساسيتين :

- **خاصيتها شبه العمومية :**

اشتهر الخلفاء المغاربة بكونهم جمعوا في خزانتهم عدداً كبيراً من الكتب المنحدرة من كل أنحاء الإمبراطورية الإسلامية . وكانت هذه المجموعات تضم في غالب الأحيان مؤلفات نادرة وقيمة . وباقتناع هؤلاء الخلفاء بأن خزائنهم كانت على جانب من الثراء والأهمية بحيث يمكن أن تصلح مركزاً للبحث ، فإنهم قد فتحوها أمام العلماء والأدباء . وهكذا فقد كان العلماء ومثقفو البلاط يأتون للاستفادة من هذه الثروة وليكملوا عملهم بدقة كعلماء كبار ، وشرَّاح ، ومجّمعين ، وكتَّاب . ومن خلال ذلك يمكن أن نصف هذه المؤسسة بطابعها الشبه عمومي [٣١] .

- **الكتابة على بوابة المكتبات :**

هذه العادة تقليد قديم وليست ظاهرة تختص بها الخزانة الملكية في المغرب فالموحدون كانوا ينحتون في مقدمة خزائنهم إما آية قرآنية ، وفي غالب الأحيان " بسم الله الرحمن الرحيم " ، أو بيتاً شعرياً كما هو الأمر عند الأمير الموحدي أبي الربيع الذي أمر بكتابة بيتين كتبهما هو بنفسه على بوابة خزانته :

أرغبُ إلى الرحمن يا مَنْ رأى خَطِّي أن يعفوَ عن كاتبه

يومَ يقـولُ اللهُ أين الذي خطتـه يمنـاك ألافات بـه [٣٢]

ثانياً : المكتبات العامة :

أُنشئت مكتبات عامة إلى جانب مكتبات الأربطة الموجودة بالفعل ، وتمثلت هذه المكتبات في المكتبة الملحقة بالمدارس الموجودة شمال جامع المنصور بمراكش الجديدة حيث ورد في وقفية علي " كتاب الأنجاد في أبواب الجهاد " لابن أصبغ الأزدي أنه حبس على المدرسة بقصبة مراكش [٣٣] ، وهذه المكتبة مكتبة عامة وبالتالي فالمكتبة الملحقة بها والكتب الموقوفة عليها عامة متاحة للدارسين كافة .

كذلك وجدت المكتبة الملحقة بجامع الساقية بمراكش القديمة ، ويتضح وجود هذه المكتبة من خلال وقف الخليفة الموحدي عمر المرتضى ، للسّفْرِ الرابع من كتاب التمهيد لابن عبد البر حيث حبسه على من يقرأ فيه من المسلمين بمدرسة العلم بالجامع المرتضى ، وسمح لهم في الوقفية القراءة فيه بالليل ولكن دون إخراجه من المدرسة ، ووجدت هذه الوقفية على الجزء الثامن من نفس الكتاب أيضاً [٣٤] ، وبذلك بهذه المكتبة مكتبة عامة لكافة المسلمين الذين يرغبون في الدراسة في المدرسة .

وذكر أيضاً أن مسجد ابن تومرت بتينملل يضم خزانة كبيرة تحتوي على الكثير من الأسفار والمصاحف المحبوسة على هذه الخزانة [٣٥] ولأن هذه الخزانة موجودة في مسجد ، فهي مكتبة عامة وذلك لكثرة الوافدين على المسجد وكثرة المطلعين على الكتب الموجودة .

وبعد ذلك تأتي **المكتبة الشارية** المنسوبة لمؤسسها أبي الحسن علي بن محمد الغافقي السبتي المعروف بالشاري (ت٦٤٩هـ / ١٢٥١م) وهو من أهل المدينة عُرف عنه عنايته بالعلم وطلبه وقد كان محدثاً جليلاً شغوفاً بجمع الكتب فكون مكتبة عظيمة أنشأها بماله الخاص في مدرسته بسبتة ، حبس عليها مجموعة من نفائس الكتب التي يمتلكها ليستفيد منها طلاب المدرسة ، فاعتبرت بذلك أول خزانة وقفت بالمغرب على أهل العلم [٣٦].

ومن الناحية التنظيمية لهذه المكتبات لم تشر المصادر إلى تنظيمها الإداري ولا بما يتعلق بما تتميز به عن المكتبات الملكية ولا الخاصة ، باستثناء بعض الإشارات ومنها : أنا لمصطلح

العربي " عامة " الذي كانت تتم عبره الإشارة إلى هذه الخزانات ليس له نفس المفهوم الذي يوجد لدى كلمة عامة اليوم . فالمكتبات العامة بالمعنى المعاصر للمصطلح يجب أن تستقبل كل طبقات الشعب . أما المكتبة العامة سابقاً فإنها لم تكن تستقبل إلا جمهوراً محدداً من طلبة العلم . ومن الملاحظ أن الخزانتين اللتين سميتا عامتين واللتين حافظ لنا عليهما التاريخ وهما (الخزانة الموحدية في مراكش ، والخزانة التي أسسها العلامة أبو الحسن الشاري في سبتة) كانتا ملحقتين بالمدارس وهي نوع من الثانويات التي كانت قد ظهرت في المغرب . فتعتبر هذه بداية خزانات المدارس ذات الطابع العمومي وهو نموذج من المكتبات الذي بلغ أوْجَه في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي على عهد الدولة المرينية [٣٧].

ثالثاً : المكتبات الخاصة :

نتيجة للاهتمام بنشر العلم من قبل خلفاء الدولة الموحدية زاد اهتمام العلماء بالتأليف ونسخ الكتب واقتنائها ، ولذلك انتشرت المكتبات الخاصة ، حيث حرص العديد من العلماء على اقتناء الكتب وسنذكر العديد من العلماء أصحاب المكتبات من مختلف المدن .

اولا المكتبات الخاصة بفاس :

- **مكتبة محمد بن أحمد بن مطرف (ت٥٤٠هـ / ١١٤٥م)** فقد كان من أهل العلم اشتهر بالحديث والفقه ، وكان عنده الكثير من الكتب النفيسة ، عني بضبطها وتقييدها واستوطن مدينة فاس [٣٨].
- **مكتبة محمد بن أحمد البيراني (ت٥٤٠هـ / ١١٤٥م)** ، أصله من الأندلس من مدينة جيان ، خرج منها خوفاً من العدو ، استوطن مدينة فاس ،كان من أهل العلم والفضل ، وقد كانت لديه مجموعة من الكتب القيمة اقتناها منذ كان في الأندلس وعني بضبطها والحفاظ عليها [٣٩].
- **مكتبة أبو موسى عيسى بن الملجوم (ت ٥٤٣هـ / ١١٤٨م)** من أهل مدينة فاس ، وقد عرف بشغفه بالعلم ، ورحل في طلبه إلى الأندلس ، وأخذ عن جُلّ علمائها ، عمل على نشر العلم وتدريسه وحرص على جمع الكتب والدواوين العتيقة والدفاتر النفيسة مهما كلفه ذلك من مال ، ويؤكد ذلك ما ذكر عنه أنه اشترى من أبي علي الغساني

أصل ما لديه من كتاب سنن أبي داوود ، الذي سمع فيه من أبي عمر بن عبد البر ، بمال كثير، وذلك بعد أن نسخ أبو علي منه نسخه لنفسه [٤٠] وهذا يدل على حبه لجمع النادر من الكتب واقتنائه .

- **مكتبة محمد بن الغرديس الثغلبي (ت بعد عام ٥٤٣هـ / ١١٤٨م)** كان قاضياً لفاس وناظراً لجامع القرويين وكان موضعه بزنقة حجامة حيث نزل القاضي عياض احتوت خزانته على تصانيف من فنون العلم واستعان بها الفقيه الونشريسي في تصنيف كتابه المعيار (المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب) [٤١]
- **مكتبة أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المهدوي (ت ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م)** نزل بمدينة فاس ، وهو من أهل العلم والزهد في الدنيا ، وكانت لديه كتب كثيرة كان يعيرها لأهل العلم[٤٢]
- **مكتبة عبد الرحيم بن عيسى بن الملجوم (ت ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م)** من أشهر علماء فاس ، وقد رحل في طلب العلم إلى الأندلس ، وأخذ عن جُلّ علمائها ، كون مكتبته من مكتبة والده عيسى بن الملجوم ومن مكتبة أستاذه أبي عبد الله محمد بن أحمد الخزرجي الحياني ، وأضاف عليها الكثير من ذخائر المؤلفات [٤٣].
- **مكتبة عبد الرحمن بن يوسف الملجوم (ت ٦٠٥هـ / ١٢٠٨م)** ، عرف بابن رقية ، وكان من أكابر العلماء حاز على ثروة طائلة ، واهتم بجمع الكتب وشرائها حتى كون مكتبة كبيرة جليلة الشأن ، ثم تركها لابنته التي باعت أوراق المكتبة غير المجلدة بعد وفاة أبيها بستة آلاف دينار [٤٤].
- **مكتبة أبو عبد الله بن يحيى المسوفي (ت٦٠٩هـ/ ١٢١٢م)** كان من رجال الدولة، ولي أعمال فاس وعرف عنه حبه للكتب والاعتناء بها، والحرص على جمعها ، وذُكر عنه أنه كان يعيرها لبعض العلماء لينتفع بها بالنسخ أو المقابلة مع من لديه من كتب[٤٥]
- **مكتبة محمد بن عيسى المومناني (ت ٦٣٩هـ / ١٢٤١م)** ، كان من كبار المحدثين ، اهتم بجمع الكتب حتى قيل إنه أفنى عمره في جمع الكتب ، وقد جمع منها ما لم يكن عند أحد غيره [٤٦].

- **ثانيا المكتبات الخاصة بمراكش :**

– **مكتبة أبو علي المنصور بن الحاج داود بن عمر الصنهاجي (ت ٥٥٠هـ / ١١٥٥م)** ، فقد ذكر عنه أنه كان محدثاً حافظاً ذكياً حسن الخط ، وعرف بحبه لجمع الكتب والدواوين النادرة، وتنافس مع العلماء في اقتنائها حتى قيل إنه اجتمع له من الكتب ما لم يجتمع لأحد من أهل المغرب (٤٧)

– **مكتبة محمد بن عبدا لله بن مسعود بن مفرج (ت ٥٦١هـ / ١٦٦٥م)** ، من الوافدين على مراكش عرف بتميزه في علم الحديث ، بعيد الصيت في الحفظ والإتقان والضبط ، وكان من المهتمين بجمع الدواوين والكتب (٤٨).

– **مكتبة أبي محمد عبدالله بن علي بن غلنده الأموي (ت ٥٨١هـ / ١١٨٥م)** ، وهو من الأطباء الأندلسيين وقد استوطن مراكش ، وكون مكتبة كبيرة عرفت بكثرة الكتب الموجودة بها (٤٩).

– **مكتبة أبو العباس الخزرجي المعروف بابن الصقر (ت ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م)** ، حيث كون مكتبة كبيرة احتوت الكثير من نفائس الكتب والدواوين ، وكان ينسخ النادر من الدواوين بخط يده ، وذكر أنه عند توجهه إلى مراكش كان معه من الكتب ما يقارب خمسة أحمال ، هذا بالإضافة إلى ما جمعه من الكتب في مراكش ، وقد تعرض بعض هذه الكتب للضياع أيام مقامه بغرناطة ، وكذلك نهبت بعض كتبه عند دخول الخليفة عبد المؤمن بن علي لمراكش (٥٠).

– **مكتبة أحمد بن يحيى العبدري (ت ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م)** ، من الأندلسيين الوافدين على مراكش ، ويعتبر من أهل الأدب وكان محدثاً بارعاً ، واهتم بجمع الكتب ، حيث قدرت قيمة ما اقتنى من الكتب بعد وفاته بحوالي ستة آلاف دينار أو يزيد (٥١).

– **مكتبة علي بن محمد أبو الحسن القطان (ت ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م)** ، وهو من أهل فاس واستوطن مراكش ، كان من علماء الحديث وعرف عنه صحبته للأمراء من آل عبد المؤمن ،وتعصبه لهم وله مؤلفات كثيرة ، وصنف العديد من الكتب في شتى فروع العلم ، وكذلك عرف عنه جمعه للكتب واقتناؤها ، حيث ذكر أنه اقتنى من الكتب سبعة عشر حملاً ، حملان منه بخط يده (٥٢).

- **مكتبة أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي الرندي (ت ٦٥٣هـ / ١٢٥٥م)** ، وهو من الأندلسيين الوافدين من مدينة رندة على مراكش وهو محدث رواية ، وجامع للكتب ودفاتر العلم ودوَّن وسجَّل شيوخه الذين تلقى العلم عنهم [٥٣].
- **مكتبة محمد بن مروان اللخمي الإشبيلي** فقد كان من الأدباء المهتمين بالعربية والنحو ، وعرف بحبه لجمع الكتب واقتنائها وهو من الأندلسيين الوافدين من إشبيلية ، وكان مولده قبل التسعين وخمسمائة ومات بمراكش [٥٤] .
- **مكتبة أبو عبد الله بن أحمد السبائي بن الطراوة (ت ٦٥٩هـ / ١٢٦٠م)** وهو من كبار علماء مراكش وعرف باهتمامه باقتناء الأصول من الكتب ،وحرص على تصحيحها ومقارنتها بأصول شيوخه [٥٥] .

لم يقتصر وجود المكتبات الخاصة على مدينتي فاس ومراكش ، بل وجدت مكتبات العلماء في مدن أخرى ومنها مدينة تلمسان كان بها **مكتبة الشيخ أبو عبد الله بن سليمان اليعمري (ت ٦٢٥هـ / ١٢٢٧م)** فقد ذكر أنه مهتمٌّ بجمع الكتب النادرة ومُغال في أثمانها [٥٦] .

وفي مدينة تادلا **كانت مكتبة الشيخ أبو موسى الفشتالي** ، إذ كان يقتني الكثير من الكتب يضعها في مخلاة يحملها معه في أي مكان يذهب فيه [٥٧] .

وفي مدينة سبتة كانت **المكتبة الشارية** المنسوبة لمؤسسها أبي الحسن علي بن محمد الغافقي السبتي المعروف بالشاري (ت٦٤٩هـ /) وهو من أهل المدينة عُرف عنه عنايتُه بالعلم وطلبه وقد كان محدثاً جليلاً شغوفاً بجمع الكتب فكون مكتبة عظيمة أنشأها بماله الخاص في مدرسته بسبتة ، والتي ضمت نفائس ودواوين عتيقة غالى في أثمانها . وهي أول خزانة وقفت بالمغرب على أهل العلم [٥٨].

أما من ناحية **التنظيم والمميزات** للمكتبات الخاصة فلم يوجد في المصادر ما يشير إلى تنظيم هذه المكتبات . و**قد تميزت بالآتي :**

- التشابه فيما يتعلق بالكتب التي تضُّمها المكتبات الخاصة التي كانت مكونة في جزء كبير منها من مؤلفات الدين والأدب واللغة ، ودواوين الشعر . ولكن كانت توجد في بعض المكتبات بعض المؤلفات الفلسفية أو العلمية . فالمراكشي يشير إلى خزانة العالم

يوسف ويُكنى أبا الحاج ويعرف بالمراني التي صادرها الخليفة الموحدي أبو يعقوب يوسف ، كانت تضم مجموعات هامة من كتب الفلسفة التي كثيراً ما كان الخليفة شغوفاً بها، وكانت مكتبة الطبيب ابن الحكم بن غلندو تضم إلى جانب كتب الطب كتب علوم أخرى [٥٩] .

- كانت خزانات الكتب الخاصة في المغرب مقتصرة على فئات محدودة فلا يستطعُ الدخولَ إلى هذه المكتبات إلا العلماءُ وأصدقاءُ أصحاب المكتبات الراغبون في التحصيل والاستفادة ممَّا فيها من كتب ومعارف ، فمكتبة أبي عبد الله بن يحيى المسوفي (٦٠٩هـ / ١٢١٢م) كانت ذات فائدة كبيرة للشيخ أبي محمد [٦٠] ، وكانت كذلك ذات فائدة للشيخ أبي عبد الله محمد بن أحمد السبائي المعروف بابن الطراوة في مجال النسخ عن الأصول والمخطوطات التي ألَّفها كبار الشيوخ [٦١].

ثالثاً: صناعة الوراقة والورَّاقين :

وقد أسهم انتشار الكتب والمكتبات في ازدهار صناعة الوراقة والوراقين ، وهي من الصناعات المرتبطة بالكتب ونسخها ، وجاء هذا الازدهار نتيجة لاهتمام العلماء بنسخ المؤلفات واقتنائها :

اولا: صناعة الورق

ازدهرت صناعة الورق في العصر الموحدي بحيث يعد العصر الذهبي لهذه الصناعة ويرجع ذلك إلى الاهتمام بالكتب بحيث أصبحت البلاد سوقاً جديدة له ، فكان بمدينة فاس وحدها ٤٠٠ مَعْمَل لإنتاج هذه المادة أيام يعقوب المنصور وابنه محمد الناصر . والظاهر أن مركز هذه المعامل هو الذي كان يعرف في فاس بالكغادين عند حي باب الحمراء على مقربة من وادي الزيتون ، وقد خربت هذه المصانع من جراء المجاعات والفتن التي اجتاحت المغرب أواخر ذلك العهد [٦٢] .

ومما يدل كذلك على انتشار هذه الصناعة بمدينة فاس أن مكتبة أحد قضاتها من بني الملجوم كانت كلها من الورق لدرجة أنه بيعت فيها كتبه غير المجلدة بستة آلاف دينار [٦٣] .

وتعد مدينة سبته في طليعة مراكز إنتاج الورق والذي كان ينسب إليها ، واشتهرت في هذا الصدد أكثر من مدينة شاطبة الأندلسية [٦٤] .

ومن المهن التي انتشرت مهنة النساخة والوراقة ، فقد انتشرت هذه المهنة في العصر الموحدي وأصبحت مِهَناً يقتات منها من يعمل بها . وقد احتوى بلاط الخليفة المرتضى على " ديوان للنساخين " وكان يشرف عليهم رئيس مسؤول عنهم . وفي أيام الخليفة نفسه عرف أول مركز عمومي للنساخة وهو خزانة مدرسة العلم بالجامع المرتضى بمراكش الجديدة [٦٥]. **ومن مشاهير العلماء النساخين :**

- أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن الصقر (ت ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م) حيث عمل بالوراقة وإسترزق منها زمناً طويلاً [٦٦] .
- عتيق بن علي الصنهاجي المكناسي (ت ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م) أصله من مكناسة الزيتون ، ونشأ بفاس كتب بخطه علماً كثيراً [٦٧].
- محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق التغمري السبتي كان حياً (٥٩٦هـ / ١١٩٩م) كان صاحب إتقان وضبط ، نسخ بخطه العديد من الكتب [٦٨].
- محمد بن جرير المعروف بابن تاخميست (ت ٦٠٨هـ / ١٢١١م) كان له خط حسن ، ينسخ المصاحف بيده ويعطيها لمن يراه أهلاً لها ابتغاء الثواب [٦٩] .
- محمد بن موسى بن المعلم الفاسي (ت ٦١١هـ / ١٢١٤م) عمل بالنساخة وتعَّيش منها ، إلى جانب كونه خطيباً لجامع القرويين [٧٠] .
- علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي الحميري الفاسي (ت ٦٢٨هـ / ١٢٣١م) ، ذكر عبد الملك أنه كتب بخطه مقدار حملين من الكتب [٧١] .
- عيسى بن علي بن واصل المراكشي (ت ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م) كان بارع الخط جيد الوراقة ، نسخ دواوين عدة في فنون شتى [٧٢] .
- محمد بن أحمد بن محمد السبئي المراكشي المعروف بابن الطراوة (ت ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠م) كان بارع الخط ، وقد تَميَّزَ عمن سبقه من النساخين بمعرفته للخطوط [٧٣] .
- محمد بن علي العابد الأنصاري الفاسي (ت ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م) وهو نساخ بارع مواظب على النسخ ، ويتميز بكتابته لكبار الدواوين [٧٤] .

- الخليفة الموحدي أبو حفص عمر المرتضى بن السيد أبي إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن (ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م) ، كان خطاطاً بارعاً في الكتابة المصحفية وغيرها ولا يزال يوجد بخطه أثران جليلان : ربعةٌ قرآنية كانت في عشرة أجزاء كتبها عام ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م ، حبسها على مكتبة ابن يوسف في مراكش في القرن الثالث عشر الميلادي ، ونسخةٌ من " الموطأ " للإمام مالك بن أنس في سفرين ، انتسخهما بخطه . وقد ورث السيد أبو زيد ابن الخليفة عمر المرتضى مهنة النساخة عن أبيه [٧٥] .

ومن مشاهير الورَّاقات الأندلسيات اللائي استوطن المغرب في هذه الفترة :

- سعيدة بنت محمد بن فيره الأموي التطيلي وأختها الأصغر منها ولم يذكر ابن عبد الملك اسمها ، سكنتا مراكش مجاورتين لبيت أبي العباس بن عبد الرحمن بن الصقر ، وقد اشتغلتا بنسخ الكتب [٧٦] .
- ورقاء بنت ينتان طليطلية سكنت مدينة فاس وتوفيت بعد (٥٤٠هـ / ١١٤٥م) كانت خطاطة بارعة[٧٧].

ومن الورَّاقين الأندلسيين الذين استوطنوا المغرب الأقصى :

- أحمد بن عبد الرحمن بن الصقر ، والد محمد بن الصقر المذكور سابقاً (ت ٥٦٩هـ / ١١٧٣م) أصله من الثغر الأعلى من سرقسطة واستقر به المقام بمراكش وذكر عنه ابن عبد الملك " أنه كتب من دواوين العلم ودفاتره ما لا يحصى : كثرة وجودة ضبط " [٧٨] .
- عيسى بن محمد بن شعيب الغافقي (ت ٥٨٦هـ / ١١٩٠م) وهو قرموني استوطن مدينة فاس ويعرف بأبي الأشل ، لشلل كان بيده اليمنى ، وكان حسن الخط وراقاً [٧٩] .
- علي بن نجبة بن يحيى لرعيني ، أشبيلي سكن مراكش ، وكان كاتباً بليغاً بارع الخط ، كتب الكثير وراقةً وإنشاءً ، وتاريخ وفاته غير مذكور [٨٠].
- يحيى بن محمد بن يحيى بن علي القيسي القرطبي ، ويعرف بابن الاشبيلي ، أصله من قرطبة ،استوطن فاس ، تاريخ وفاته غير مذكور ، وهو خطّاطٌ مزخرفٌ للكتب [٨١] .

- أحمد بن محمد بن خلف البكري (ت في حدود ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م) بطليوسي نزل مراكش ، ويكنى بأبي العباس بن العارض قال عنه ابن عبد الملك : " حسن الخط كثير النسخ " [٨٢] .
- أحمد بن أبي الحسن نبيل الرومي ، مولى أبي القاسم ابن رزين التجيبي الشقوري ،(ت ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م) من مدينة مرسية استوطن سبتة ، وقد كان حسن الخط متقن التقييد كتب بخطه من دواوين العلم ما لا يحصى [٨٣] .

ومن مميزات الوراقة الموحدية التفنن في تنويع الخطوط إلى طرائق مغربية ومشرقية وقد اشتهر منهم :

- الخليفة الموحدي أبو حفص عمر المرتضى بن السيد أبي إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن (ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م) ، فقد كان يجيد الكتابة بثلاثة خطوط [٨٤]
- أبو الحكم عبيد بن علي بن علي بن عبيد الله بن غلنده الأموي (ت ٥٨١هـ / ١١٨٥م) من أشبيلية ولما تولى المنصور الخلافة حمله معه إلى مراكش ، وقد امتاز في خطاطته بأنه كان يكتب بخطين أندلسيين [٨٥] .
- علي بن سعيد بن مسعود بن سهل الأنصاري ، التلمساني الأصل ، ولم تذكر المصادر تاريخ وفاته ، والذي سكن بأشبيلية ومراكش وغيرهما من المدن ، وقد كان حسن الخط في الطريقتين المشرقية والمغربية [٨٦].
- أبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولي المراكشي (ت ٦٠٧هـ / ١٢١٠م) ، والذي كان يجيد الكتابة بالخط المشرقي [٨٧] .
- محمد بن عيسى بن محمد بن أصبغ الأزدي (ت ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م) ، وهو قرطبي الأصل وقد استوطن مراكش ، وقال عنه ابن عبد الملك : " بارع في كل طريقة " ، كما ذكر الشيخ أبو محمد بن القطَّان أنه كان يكتب بثلاث عشرة طريقة . وقال عند ذكره لكتابه " الانجاد في الجهاد " وقفت على نسختين منه بخطه المشرقي [٨٨].

كذلك ظهرت مهنة **تسفير** أو تجليد الكتب بشكل كبير ، وقد اشتغل بها العديد من الأشخاص من بينهم بعض العلماء كالشيخ أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم السدراتي ، والذي كان يعمل بتسفير الكتب وإصلاح التَّالِفِ منها [٨٩] ، واشتُهِرَتْ هذه المهنة بشكل كبير حتى أن أحد

خبراء هذه المهنة ألف كتاباً ، ذكر فيه أهم الأسس والقواعد التي تقوم عليها هذه الصناعة ، والكتاب هو " التيسير في صناعة التسفير " لأبي بكر بن إبراهيم اللخمي الأشبيلي (٦٢٩هـ / ١٢٣١م) [٩٠]

محنة المكتبة المغربية :

عَرَفَتْ خزانات الكتب في المغرب الأقصى بما تحويه من كتب عدة نكبات ، تمثلت في العوامل الطبيعية والمتمثلة في الحشرات القوارض ، وكذلك الأسباب السياسية والمتمثلة في الفتن ، وتعرضها كذلك إلى السرقة والنهب . كل هذه العوامل المخربة ألحقت أضراراً بالمكتبات المغربية كما سيتم توضيح ذلك .

اولا الأسباب الطبيعية " الحشرات القوارض " :

وهذا الأمر يعتبر مضر خاصة بالمخطوطات نتيجة الشروط غير المناسبة لحفظها ، مثلا وضع الكتب في مستودعات قديمة وغير ملائمة ، والتي أسهمت بشكل كبير في إتلافها ، وبهذا لم تخلُ مكتبة في المغرب من المخطوطات المتآكلة كلياً أو جزئياً بواسطة الحشرات ، ولقد كان المثقفون يقولون عن خزانة القرويين : الذي يسمع العث وهو يلتهم الكتب[٩١] ، ودفعاً للهجمات المتخفية للحشرات القارضة تم اتخاذ العديد من الإجراءات ففي الفصل الأخير من كتاب " التيسير في صناعة التسفير " يعرض المؤلف الوسائل التي استخدمت سابقاً للقضاء على العث (يبخر بأعضاء الهدهد وريشه فإنه يقتل الأرضة) والمؤلف نفسه يقول بأنه عرف على محمد السامري بأن الذي يكتب على أول ورقة من الكتاب وآخر ورقة هذه الأحرف فإن الأرضة لا تضره وهي : (يكيكتج) ، ويؤكد الأشبيلي أن هذا الإجراء قد سبق تجريبه وضمن جدواه [٩٢] . وعلى الرغم من كل المحاولات والوسائل المستعملة فالعث والأرضة قد أضاعا عدداً غير يسير من المخطوطات إلى الأبد.

الأسباب البشرية

- **إحراق الكتب :**

إحراق الكتب هو أحد العوامل التي كانت وراء ضياع كثير من الكتب النفيسة , فهذه الظاهرة كانت رائجة في المغرب خاصة في القرن الثاني عشر الميلادي . فلقد شاع على المرابطين والموحدين ، كل دولة من جهتها على إبادة حقيقية لمؤلفات الفلسفة والشروح للمذهب

المالكي ، الأمر الذي حرم المكتبات من عدد من الكتب والتي لم يبق منها إلا العناوين . فمثلما اعتبر الفقهاء المرابطون ذو المذهب المالكي المتطرف الفلسفة بدعة دخيلة على الدين ، وكل كتبها أصبحت مرفوضة وحضورها يعتبر خطراً في خزانة الكتب وإبادتها أصبحت ضرورية بالنسبة لكل إنسان متدين كإحراقهم كتب أبي حامد الغزالي وتهديدهم بالوعيد الشديد وسفك الدماء إلى كل من وجد عنده شيء منها [٩٣] ، وهذا الأمر أزعج الدولة الموحدية التي جاءت بعدهم فأمر الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور (٥٨٠ . ٥٩٥هـ/ ١١٨٤ . ١١٩٩م) بأن تُحرق كتب علم الفروع فانقطع هذا العلم فترة حكم الموحدين وإحراق كتب المذهب المالكي بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن فأحرق منها جملة في كل أنحاء المغرب ، ومن هذه الكتب : مدونة ابن سحنون ، وكتاب ابن يونس ونوادر ابن أبي زيد ومختصره، وكتاب التهذيب للبراذعي ، وواضحة ابن حبيب وما حَذَا حَذْوَ هذه الكتب فالمراكشي يقول : " لقد شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس ، يؤتى منها بالأحمال فتوضع ويطلق النار فيها ..." [٩٤] .

وهكذا ضاع علم الفروع مما دفع الناس إلى ترك المصادر الأولى في الشرع الإسلامي والمقصود بها القرآن والحديث . واقتنع الخلفاء الموحدون أن الإكثار من المؤلفات المرتبطة بنفس الموضوع تضر حتى باكتساب العلوم التي تعالجها [٩٥]

لم تكن مؤلفات الفقه المالكي هي وحدها وقوداً للنيران على عهد الموحدين ، فكثير من مؤلفات الفلسفة قد ألقيت في النار في عهد يعقوب المنصور فقد أمر هذا الأخير الذي كان ظاهرياً ومتحمساً لظاهريته بأن تحرق مؤلفات أبي الوليد بن رشد (ت ٥٤٩هـ / ١١٥٤م) برأي من بعض مؤازريه ممن كان من أعداء الفيلسوف الكبير فقد اتهم هذا الأخير بكونه جعل الزهرة أحد الآلهة وفي هذا الصدد يقول المراكشي : " ..... وأمر الحاضرين بلعنة (ابن رشد) ثم أمر بإخراجه على حال سيئة وإبعاده وإبعاد من يتكلم في شَيْءٍ من هذه العلوم ،وكتب عنه الكتب إلى البلاد بالتقدم إلى الناس في ترك هذه العلوم جملة واحدة ، وبإحراق كتب الفلسفة كلها ، إلا ما كان من الطب والحساب ، وما يتوصل بها من علم النجوم ، إلى معرفة أوقات الليل والنهار ، وأخذ سمة القبلة ...." [٩٦]

وهكذا فالاختلافات المذهبية والنزاعات الإيديولوجية قد حرمت المكتبات المغربية من عدد من مؤلفات الفلسفة التي لم يعرف منها إلا العناوين [٩٧] .

- **نهب الكتب وسرقتها :**

عادة ما تتعرض المكتبات إلى النهب والسرقة في فترة الصراعات السياسية ، وبانتهاء كل دولة مغربية كان يغيب معها جزء كبير من خزانتها الملكية .ففي الحروب الأهلية بين الخلفاء الموحدين في النصف الأول من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي أبيد على إثرها المكتبة الملكية الموحدية . فقد نهبت بعض كتبها أثناء الفتنة التي حدثت بعد مقتل الخليفة الموحدي أبي محمد عبد الواحد (٦٢٠ . ٦٢١هـ/ ١٢٢٣ . ١٢٢٤م) فأمر الخليفة العادل (٦٢١ . ٦٢٤هـ/ ١٢٢٤ . ١٢٢٦م) وزيره ابن جامع بالنظر بترتيب ما تبقى من كتب الخزانة ، وتمييز الكامل من الكتب ، ومعرفة الناقص منها [٩٨] وكذلك تأثرت المكتبات الخاصة بدورها بهذه الظروف [٩٩]

ولم يطل التخريب في أثناء الفتن والحروب والمجاعات المكتبات فحسب بل طال حتى المادة الخام المصنعة للكتب وهي معامل الكاغد التي سبق الإشارة إليها فبعد أن كان عددها في مراكش يصل إلى أربعمائة معمل خُرّبت كُلُّها في أيام المجاعة والفتنة التي كانت في أيام العادل وأخيه المأمون في الفترة من سنة (٦١٠هـ ١٢١٣م/ إلى ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م)[١٠٠] .

الخاتمة:

من خلال دراسة موضوع الكتب والمكتبات بالمغرب الأقصى في عصر الموحدين يمكن استخلاص الآتي :

١ . أسهمت عدة عوامل في ازدهار الحياة الثقافية بالمغرب الأقصى مما كان له أثره في زيادة المنتوج الثقافي والمتمثلة في نشاط حركة تأليف الكتب ، إذ كان الخلفاء الموحدون في المرتبة الأولى ومن المشجعين في هذا المجال .

٢ . تنوعت المكتبات إلى مكتبات ملكية وهي مكتبات ملحقة بقصور الخلفاء والأمراء ازدهرت في كبريات مدن المغرب الأقصى كمدينة مراكش ومدينة فاس وغيرهما ، وقد احتوت على نفائس الكتب ، مما دفع بالخلفاء الموحدين إلى تعيين محافظ لهذه المؤسسة . ومكتبات عامة

كانت مزودة بكتب الوقف ، إلى أخرى خاصة سميت بأسماء مؤسسيها ، وقد تميزت كل واحدة عن الأخرى بعدة مميزات .

٣ . ترتب عن هذا الازدهار والانتشار نشاط العديد من الصناعات المرتبة بالكتب كصناعة الورق فأصبح المغرب الأقصى يعج بمشاهير الورَّاقيين والنسَّاخين الذين تفننوا في تنويع الخطوط المستخدمة سواء كانت مغربية أو مشرقية .

٤ . على الرغم من انتشار المكتبات بما تحويه من كتب قيمة ونفيسة ، إلا أنها غالباً ما كانت تتعرض لنكبات ومحن ألحقت أضرارا بالمنتوج الثقافي .

هوامش البحث :

(١) سامية إمحمد محمد قريميدة ،الحياة الفكرية بالمغرب الأقصى عصر الموحدين (٥٢٤-٦٦٨هـ/١١٣٠ . ١٢٦٩م) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة السابع من إبريل ،كلية الآداب ، قسم التاريخ ، ليبيا ، ٢٠٠٧ . ٢٠٠٨ف، ص٢٣ .

(٢) حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب عهد المرابطين والموحدين، القاهرة، مكتبة الخانجي ١٩٨٠ ، ص٤٤٤.

(٣) أحمد شوقي بنبين : تاريخ حزائن الكتب بالمغرب ، الخزانة الحسينية ، مراكش ، ٢٠٠٣ ، ص٤٤ .

(٤) حسن علي حسن ، مرجع سابق ، ص٤٤٦ .

(٥) المراكشي : المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، تحقيق :محمد سعيد العريان ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص٣١٠ . ٣١١ .

(٦) سامية أمحمد قريميدة ، مرجع سابق ، ص٦٤ .

(٧) أحمد شوقي بنبين : مرجع سابق ، ص٤٨ .

(٨) ابن أبي اصبيعة :عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق : نزار رضا ، منشورات دار الحياة ، بيروت ، (د.ت) ، ج٢ ، ص٥٢٠ . ٥٢١ .

(٩) المراكشي ، مصدر سابق ، ص٣١٥ . ٣١٦ ، محمد المنوني ، حضارة الموحدين، دار توبقال ، الدار البيضاء ، المغرب ، ص١٨٣ .

(١٠) ابن أبي أصبيعة ، مصدر سابق ، ج٢ ، ص٥٢٢ .

(١١) المراكشي ، مصدر سابق ، ص٣٥٥ .

(١٢) ابن عذاري ، البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب (الموحدين) ،تحقيق : محمد إبراهيم الكتاني وآخرون ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ص٢٤٦ .

(١٣) محمد بن محمد بن مخلوف : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، المطبعة السلفية ومكتبتها ، القاهرة ، ١٣٤٩ ، ص١٧٧ . ١٧٨ .

(١٤) ابن القطان : نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان ، تحقيق : محمود علي مكي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٠ ، ص٢١٢ ، سامية إمحمد قريميدة ، مرجع سابق ، ص٦٣ .

(١٥) ابن عبد الملك ، الذيل والتكملة ، تحقيق : محمد بن شريفة ، أكاديمية المملكة المغربية ، الرباط ، ١٩٨٤ ، السفر الخامس ، القسم١ ، ص٣٢١ .

(١٦) نفسه ، ص٣٧٢ .

(١٧) المقري : أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرون ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٤٠ ، ج٢ ، ص٢٣٠ .

(١٨) السلاوي : الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ ، ج١ ، ص١٧٤ .

(١٩) ابن عبد الملك ، مصدر سابق ، س١ ، ق١ ، ص٢٢٨ .

(٢٠) المراكشي ، مصدر سابق ، ص٣١٠ . ٣١١ ، محمد المنوني : حضارة الموحدين ص١٨٦.

(٢١) العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأنصار ، تحقيق : حمزة أحمد عباس ، إصدارات المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، ٢٠٠٢ ، السفر٤، ص٢٠٠ .

(٢٢) ابن أبي أصبيعة ، مصدر سابق ، ج٢ ٥٣٤ ، سامية إمحمد قريميدة ، مرجع سابق ، ص٦٢ .

(٢٣) أحمد شوقي بنبين ، مرجع سابق ، ص٥٦ .

(٢٤) نفسه ، ص ٥٦ .

(٢٥) ابن عبد الملك ، مصدر سابق ، س١ ، ق١ ، ص٢٢٨ .

(٢٦) نفسه ، س٨ ، ق١ ، ١٦٥.

(٢٧) نفسه ، ص١٧٤ . ١٧٥ .

(٢٨) نفسه ، س٥ ، ق١ ، ص٢٧٤ .

(٢٩) ابن أبي اصبيعة ، مصدر سابق ص٥٣٤ .

(٣٠) ابن عبد الملك ، مصدر سابق ، س٨ ، قس ٢ ، ص٤٦٨ ، سامية إمحمد قريميدة ، مرجع سابق ، ص٦٦ .

(٣١) أحمد شوقي بنبين ، مصدر سابق ، ص٥٩ .

(٣٢) نفسه ، ص ٦٠ .

(٣٣) محمد المنوني : حضارة الموحدين ، ص٢٠٤ .

(٣٤) نفسه ، ص٢٠٥ .

(٣٥) نفسه ، ص٢٠٨ .

(٣٦) ابن عبد الملك ، مصدر سابق ، س٨ ، ق١ ، ص ١٩٧ .

(٣٧) أحمد شوقي بنبين ، مرجع سابق ، ص ٧٠ .

(٣٨) ابن الزبير : صلة الصلة ، تحقيق :عبد السلام الهراس ، سعيد أعراب ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الرباط ، ١٩٩٤ ، ق٥ ، ملحق الأعلام ، ترجمة ١٥٥ ، ص٣٨٤ .

(٣٩) ابن القاضي : جذوة الاقتباس فيمن حل بمدينة فاس ، دار المنصور ، الرباط ، ١٩٧٣ ، ج١ ، ص٢٥٨ .

(٤٠) ابن عبد الملك ، مصدر سابق ، س٨ ، ق١ ، ص٢٥٨ .

(٤١) المقري : أزهار الرياض ، ج١ ، ص٢٤ عبد الهادي التازي :جامع القرويين ، دارنشر المعرفة ، الرباط ، ١٩٧٣ ، ج١ ، ص١٢٤ .

(٤٢) ابن الزيات : التشوف إلى رجال التصوف ، تحقيق : أحمد التوفيق ، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح ، الدار البيضاء ، ط٢ ، ١٩٩٧ ، ص٣٣٢ . ٣٣٤ .

(٤٣) ابن عبد الملك ، مصدر سابق ، س٨ ، ق٢ ، ٥٤٣ . ٥٤٤ ، عبد الهادي التازي ، مرجع سابق ، ج١ ، ص١٢٣ .

(٤٤) ابن القاضي ، مصدر سابق ، ج٢ ، ص٣٩٦ ، عبد الهادي التازي ، مرجع سابق ، ج١ ، ص١٢٣ .

(٤٥) محمد المنوني : حضارة الموحدين ، ص١٨٧ .

(٤٦) ابن عبد الملك، مصدر سابق ، س٨ ، ق١ ، ص٣٥١ .

(٤٧) ابن الآبّار : المعجم في أصحاب القاضي الصدفي ، تحقيق : إبراهيم الابياري ، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، القاهرة ، بيروت ، ١٩٨٩ ، ص١٩٩ . ٢٠٠ .

(٤٨) ابن الآبار : التكملة لكتاب الصلة ، تحقيق :عبد السلام الهراس ، دار الفكر، ١٩٩٥ ، ج٢ ، ص٣٠ . ٣١

(٤٩) ابن أبي أصبيعة ، مصدر سابق ، ص٥٣٤ ، محمد المنوني : حضارة الموحدين ، ص١٨٨ .

(٥٠) ابن عبد الملك ، مصدر سابق ، س١ ، ق١ ، ص٢٢٩ .

(٥١) العباس بن إبراهيم ، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ، المطبعة الملكية ، الرباط ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٣ ، ج٢ ، ص١٠٤ .

(٥٢) ابن عبد الملك ، مصدر سابق ، س٨ ، ق١ ، ص١٧٦ . ١٩٤ .

(٥٣) محمد المنوني : حضارة الموحدين ، ص١٨٨ .

(٥٤) السيوطي بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٩ ، ج١ ، ص٢٤١ .

(٥٥) ابن عبدالملك ، مصدر سابق ، س٨، ق١ ، ص٢٦٥ ، محمد المنوني :حضارة الموحدين ، ص١٨٨ .

(٥٦) المصدر نفسه ، ص٣١٨ .

(٥٧) ابن الزيات ، مصدر سابق ، ٢٥٩ .

(٥٨) ابن عبد الملك ، مصدر سابق ، س٨ ، ق١ ، ص ١٩٧ .

(٥٩) المراكشي ، مصدر سابق ، ص ٣١٠ ، أحمد شوقي بنبين ، مرجع سابق ، ص٦٥ .

(٦٠) محمد المنوني: العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، دار المغرب، الرباط، ط٢، ١٩٧٧، ص٢٨٤.

(٦١) نفسه ، ص ٢٨٥ ، أحمد شوقي بنبين ، مرجع سابق ، ص ٦٦.

(٦٢) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ، ١٩٧٢ ، ص٤٩ ، محمد المنوني : تاريخ الوراقة المغربية ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، ١٩٩١ ، ص٣٣ .

(٦٣) عبد الهادي التازي ، مرجع سابق ، ج١ ، ص١٢٤ .

(٦٤) محمد المنوني : تاريخ الوراقة المغربية ، ص٣٣ .

(٦٥) نفسه ، ص٢٨ . ٢٩ .

(٦٦) ابن عبد الملك ، مصدر سابق ، س١ ، ق١ ، ص٢٢٩ .

(٦٧) ابن القاضي ، مصدر سابق ، ج٢ ، ص٤٥٥ .

(٦٨) ابن عبد الملك ، مصدر سابق ، س٨ ، ق١ ، ص٢٦٥ ، محمد المنوني : تاريخ الوراقة المغربية ،ص٣٤ .

(٦٩) ابن القاضي ، مصدر سابق ، ج١ ، ص٢٢٠ . ٢٢١ .

(٧٠) ابن أبي زرع ، مصدر سابق ، ص٧٢ ، محمد المنوني : تاريخ الوراقة المغربية ، ص٣٥ .

(٧١) ابن عبد الملك ، مصدر سابق ، س٨ ، ق١ ، ص١٦٥ .

(٧٢) محمد المنوني : تاريخ الوراقة المغربية ، ص٣٥ .

(٧٣) ابن عبد الملك ، مصدر سابق ، س٨ ، ق١ ، ص٢٦٤ . ٢٦٥ .

(٧٤) السيوطي ، مصدر سابق ، ج١ ، ص١٨١ .

(٧٥) سحر السيد عبد العزيز سالم : مدينة الرباط في التاريخ الإسلامي (منذ نشأتها حتى نهاية عصر بني مرين) مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٩٦ ، ص١٠٧ .

(٧٦) ابن عبد الملك ، مصدر سابق ، س٨ ، ق٢ ، ص٤٨٧ .

(٧٧) نفسه ، ص٤٩٣ .

(٧٨) نفسه، س١ ، ق١ ، ص٢٢٣ ، ٢٢٥ .

(٧٩) نفسه ، س٥ ، ق٢ ، ص٥٠٦ .

(٨٠) نفسه ، س٥ ، س١ ، ص٤١٤ .

(٨١) محمد المنوني : تاريخ الوراقة المغربية ، ص٣٨ . ٤٠ .

(٨٢) ابن عبد الملك ، مصدر سابق ، س١ ، ق٢ ، ص٤٢٢ .

(٨٣) نفسه ، ص٥٥٣ . ٥٥٤ ، محمد المنوني : تاريخ الوراقة المغربية ، ص٤٠ .

(٨٤) سحر السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ، ص١٠٧ .

(٨٥) ابن أبي إصبيعة ، مرجع سابق ، ص٥٣٤ . ٥٣٥ .

(٨٦) ابن عبد الملك ، مصدر سابق ، س٨ ، ق١ ، ص٢١٣ .

(٨٧) محمد المنوني : تاريخ الوراقة المغربية ، ص ٤٢ .

(٨٨) ابن عبد الملك ، مصدر سابق ، س٨ ، ق ١ ،٣٤٥ . ٣٤٨ .

(٨٩) الدرجيني: طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق: إبراهيم طلاّى، مطبعة البعث، الجزائر، (د.ت)، ج٢، ص٤٩٢

(٩٠) ابن القاضي ، مصدر سابق ، ج١ ، ص١٦٩ .

(٩١) أحمد شوقي بنبين ، مرجع سابق ، ص١٧٥ .

(٩٢) عبد الله كنون : كتاب التيسير في صناعة التسفير ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية ، مدريد ، ١٩٥٩ . ١٩٦٠ ، ص٤٠.

(٩٣) المراكشي ، مصدر سابق ، ص٢٣٧ .

(٩٤) نفسه ، ص ٣٥٤ .

(٩٥) أحمد شوقي بنبين ، مرجع سابق ، ص١٧٩ .

(٩٦) المراكشي ، مصدر سابق ، ص ٣٨٥ .

(٩٧) أحمد شوقي بنبين ، مرجع سابق ، ص ١٨٠ .

(٩٨) ابن عبد الملك ، مصدر سابق ، سفر ٨ ، ق١ ، ص١٧٤ .

(٩٩) أحمد شوقي بنبين ، مرجع سابق ، ص ١٨٥ .

(١٠٠) ابن أبي زرع ، مصدر سابق ، ص٤٩ .